إيال خوبرز (*)

الجامعة العبرية: اللغة والعنف في الصهيونية المُبكِّرة

تعريف

يتقصى المقال التالي العلاقة الجدلية بين تحول اليهود إلى جماعة تلجأ إلى استخدام خيار العنف وبين إحياء اللغة في الصهيونية المبكرة وذلك من خلال دراسة الأجواء التي رافقت ما يعتبره الكاتب «الثورة الصهيونية»، خاصة خلال إقامة الجامعة العبرية، ويرصد الكاتب النقاشات التي دارت بين المثقفين ورافقت عملية إحياء اللغة العبرية، ويتوقف بشكل خاص عند النقاشات التي دارت حول «أهداف اللغة» وروحها التي يجب إحياؤها، وما رافقها من نقد وخيبات .

تمثل اثنان من بين التطورات، الأكثر بروزاً من بين التطورات التي واكبت الثورة الصهيونية، في إحياء اللغة العبرية كلغة قومية دارجة وقيد الاستعمال اليومي، وتجديد استخدام وسائل العنف من قِبل اليهود كيهود (وليس كأعضاء في دولة قومية أخرى). كان من الممكن أن يتخيّل واحدُنا ثورةً صهيونية وتأسيسَ دولةٍ يهودية يتكلم فيها المواطنون الـ «ييدش» أو الألمانية. وهي فكرة راودتْ بعضَ الصهيونيين. كان هذا احتمالاً معقولاً، باعتبار أن اللغةَ العبرية كانت تفتقرُ إلى الثروة اللُّغوية في غالبية مجالات الحياة المعاصرة، بما في ذلك المفردات اللازمة لاستخدام العنف (مثل، وسائل القتال والاستراتيجيات والتكتيكات التي سوف يتم تبنّيها، وخصوصاً العلامات الفارقة الأخلاقية والقانونية، الضرورية لإدارة حرب). لكن، يستطيع الواحدُ تخيّلَ ثورةٍ صهيونية يكون قد تم فيها إحياءُ العبرية والاحتفالُ بذلك في دولةٍ ثنائيةِ القومية، حيث يعيش اليهود والعرب بقدر كبير من الانسجام والسلام مع جيرانهم. في مثل هذه الدولة،

(*) محاضر في قسم العلوم السياسية– جامعة تل أبيب.

من المرجَّح أن استخدامَ العنف سيكون محدوداً جداً، والمؤسسة العسكرية ستكون صغيرة، وعلى أي حال فإن خطابَ العنف سيكون ثنائيَّ اللغة. غير أن التاريخ اتخذَ مساراً مختلفاً، بحيث أن عبريةَ وسائلِ العنف ويهوديتها انتظمتا فجأة، فواجه أحدُهما الآخر مجدداً في القرون الماضية والراهنة – بعد فترةٍ طويلةٍ كان فيها كلاهُما في سباتٍ.

بهذا المفهوم للغة، على أية حال، لم تكن الحركة الصهيونية موحَّدةً، وكانت النظرة إلى اللغة (ومجردِ أهميتها) موضعَ خلاف بين أنصارها. رأى البعضُ، بشكل خاص، أن اللغةَ أساسيةٌ من أجل تأسيس دولةٍ قوميةٍ يهودية، متجانسةٍ ومُعرَّفة بشكل جيّدٍ، فيما رأى آخرون في اللغة جسراً إلى التقاليد اليهودية التي تقودُها القيمُ الإنسانية والأخلاق. سأشيرُ في هذه المقالة الموجزة، إلى فكرة اللغة كما تطورتْ في الجامعة العبرية في عقودِها الأولى، وإلى الأهمية السياسية لهذه الفكرة. فلم يحدثْ في أيِّ مكانٍ آخر، فيما يخص الصهيونيين الأوائل، أن التناقضَ بين اللغة العبرية من جهة واستخدام العنف من جهة ثانية، كان كبيراً مثلما كان في صفوف أساتذة الجامعة العبرية. كان كثيرون من الأساتذة ينتمون إلى «بريت شالوم» (ميثاق السلام)، التي هي جمعيةٌ صغيرة ولكن ذائعةُ الصيت في فلسطين. ادعت هذه الجمعية أنه يجدرُ أن يتم التخلي عن الإصرارِ على أن يكونَ اليهود أكثريةً في فلسطين، وبدلاً من ذلك تجدرُ فكرة الدولة ثنائية القومية حيث يحتفظُ العربُ واليهودُ ببعض الحكم الذاتي، في تجمُّعيْن منفرديْن، ولكن يشاركان في مؤسسات سياسية مركزية. كان غالبية أعضاء هذه المجموعة من أصولٍ وسطٍ وغربٍ أوروبية، وكانوا مصابين بالهلع من المشاعر القومية التي دفعت إلى الحرب العالمية الأولى. ومع ذلك، فقد كانوا صهيونيين ملتزمين، بحيث أن بعضَهم كانوا ذوي خلفيةٍ دينيةٍ قويّة ومعارضين تقسيمَ الأرض المقدسة. برفضهم رؤية فكرة الدولة القومية اليهودية ذات السيادة هدفاً رئيساً للصهيونية، فقد مزجوا بين الإيمان الليبرالي بالمساواة والتسامح ومناهضة الإمبريالية، من جهة، وبين الجذور القوية للتقاليد الأخلاقية اليهودية، من جهة ثانية.

كان أوائلُ الطليعيين في الهجرة الثانية (١٩٠٤–١٩١٤) ملتزمين بتحويلِ اللغة العبرية، التي كانت في الأساس مكتوبةً وغيرَ محكيةٍ ومشغولةً بمواضيع الدين والتفسير، إلى لغةٍ للاستخدام الشعبي، بحيث تصبحُ قادرةً على خدمة الرجلِ والمرأة في سلسلةٍ كاملةٍ من المجالات: السياسة والعلم والطبيعة والأدب والتعبير والتواصل على مستوى الأفراد وغير ذلك. وأطلقوا على هذه المهمة، الفردية والجماعية، اسم «كيبوش هلشون» أو احتلال اللغة. جعلت الحياة الجمعية لهؤلاء الطليعيين هذه الثورةَ اللغوية ممكنةَ التحقيق، لأن إحياءَ اللغة وتوسيعَها يحتاجان إلى تواصلٍ يوميٍّ ومستمرٍ بين الأفراد الذين يُرغمون أنفسَهم على أن يتحادثوا بلغة ليست لغتَهم الأم[١] هذه اللغة لم تُمنَحْ، وإنما تمَّ ابتكارُها: مفردةٌ معروفةٌ من التوراة أو مصدرٍ آخر، وقد تمَّ حفظُها عبر الأجيال، أطلقتْ لاستخداماتٍ أخرى. معانٍ إضافية أضيفت لكلمة قائمة ومفرداتٌ أجنبية تعرضتْ للعَبْرَنَة. كثيرٌ من المفردات، من ال«طوماطو» (البندورة – عغفانيا) إلى عدم الاكتراث (أديشوت) كان لزاماً أن يتمَّ الحصول عليها، بالحفر بالأظافر. فقط العقائديون المتحمِّسون يستطيعون القيامَ بمثل هذا العمل الهرقلي.

من جانبٍ آخر، وهذا أمرٌ أقلُّ شهرةً، كانت الحركةُ الصهيونيةُ متمردةً على وضعية اللغة في المهجر اليهودي وعلى ثقافة الدراسة. تقليدياً، حافظَ اليهودُ على هويتِهم بممارسة طرقٍ في الدراسة، بحفظِ النصوص المقدسة وتكرارِها مرّةً تلوَ المرّة، وبتقديم طبقةٍ أخرى من التفسيرات للنصوص القائمة. لكن التيار الرئيس في الصهيونية رفضَ فكرةَ أن الوجودَ البشري يرتكز إلى اللغةِ وحاولوا وضعَ أُسُسٍ جديدة. «الشيء الذي يُحكى ويُكتب فقط» يقول الكاتب ميخا جوزيف بيرديشيفسكي، «لن يكونَ جزءاً من شخصيةِ الأمّةِ وكيانِها. يجب أن يتجسدَ في السيرورة وأن يصبح قوةً فعالةً في الحياة وفي العمل». [٢] بالنسبة للطليعيين في العقود الأولى، فإن التقاليد المرتكزةَ إلى النصوص أصبحت فجأةً غيرَ طبيعيةٍ وعقيمةً، وأصبحت تعني السلبيةَ والافتقارَ إلى الحيوية. وأهمُّ من ذلك أن التقاليدَ أصبحت تمثلُ إيماناً مزيفاً في عالم مشترك من المعاني يستند ويُنقلُ بواسطةِ الكلام. بالنسبة لهؤلاء الطليعيين، فإن الصلواتِ لم تخففْ من وطأة الوضع الاقتصادي المتأزِّم لليهود، والتعليمُ لم يمنعْ المجازر.

تبدأُ الثورةُ الصهيونية، على الأقل لدى المدارسِ السائدة، بإحياءِ اللغة العبرية، ولكن أيضا برفض اعتماد اليهود على الكتب القديمة وعلى الكلام العمومي. حاول الصهيونيون إيجادَ أسسٍ جديدة: تقاسُ الحياةُ في ضوءِ النشاطِ والعمل، بتحويلِ الواقعِ الماديِّ، بخلقِ الأمور التي تُرى وتُمس وتُقاس. الصهيونيةُ على وشك أن تقيمَ أبنيةً وتزيدَ من عدد السكان وأن تحصلَ على مزيدٍ من الأرض وتفلحَ الحقولَ وتشقَّ الشوارع. ربما أن الكاتبُ ي.ه. برينر، هو السبّاقُ إبَّان فترةِ الطليعيين الصهيونيين الأوائل، يقترحُ بناءً على ذلك أنه

الجامعة العبرية: دور وظائفي مبكر.

يجــبُ عدمُ الانخداع ب «جمالية المصطلحات العبرية الجديدة» بحدِّ ذاتها، بل على اللغة أولاً وأساســاً أن تعبرَ عن «حياةِ العملِ والتفكير في العمل». [٣]. من الجدير أن نعرفَ أن هذه النظرة إلى الصهيونية، التي ارتبطت أساســاً بحركة العملِ الصهيونية، قادت تدريجياً إلى نموٍّ في اســتخدام العنف في العلاقــات بين اليهود والفلســطينيين: حــين تقيسُ إنجازاتِك الأســاس في العالم المادي، فــإن الكفاحَ حول المصادر (مثل الأرض والمياه) بين الشعبين يبدأُ، ويصبحُ اللجوءُ المتبادل إلى وسائل القوة جزءاً من الكفاح.

في هذا المناخِ اللغوي التشــكيكي، فإن المَعْقِلَ الرئيس (إذا جازَ التعبير) للغة العبرية كان الجامعةَ العبرية. ليس فقط أن الجامعة أدّتْ دوراً رئيساً في توسيعِ اللغة إلى مجالات جديدة وخلقــتْ مذاهبَ جديدةً في الكتابــة، وإنما أهمُّ من ذلك، كانت متمسكةً بفكرةِ أن اليهوديَّ هو، في الأساس، مستخدمُ للّغة. تأسست الجامعة في العام ١٩٢٥، وعلى الرغم من أنها كانت مؤسسةً صغيرةً فيما يتعلق بالمجال التعليمي وعددِ الطلاب، فإن أساتذتَها كانوا محترمين في نظر المجتمع، حتى وإن كانت سياســتُهم مرفوضةً في الأغلب (كثيرون منهم، كما أشــرنا، كانوا أعضاءَ في «بريت شــالوم» – ميثاق الســلام – وأيّدوا دولة ثنائية القومية). فيما يلي سوف أشيرُ إلى بعض النقاط حول مكانةِ اللغة في الجامعة العبرية، والأبعادِ السياسية التي أوحى بها مفهومُ اللغة كما تطوَّرَ هناك.

بدايةً، تجدرُ الإشــارةُ إلى مســألةٍ عامةٍ حول الجامعات واللغة. صرّحَ البروفسور ليون روث، في خطابه بمناسبة حفل افتتاحي للجامعة العبرية بصفته عميداً للجامعة، بأنه «بدون الخطــابِ العبــري، فإنه لا حقَّ للجامعة فــي الوُجود» وبأن «الجامعــة هــي المكانُ الذي يُمنحُ فيــه المعنى للكلمة...في الجامعــةِ لا يتعلّمُ المرءُ فقط اســتخدامَ اللغة، وإنما أيضاً كيف يســتخدمُها بالشــكل الصحيح.» [٤] ترتكزُ الجامعةُ إلى فكرة أهميــة التواصل اللُّغوي ومضمونه، وتطورِ الخبرات فيما يتعلقُ باســتخدامِ اللغة بالشــكل الصحيح وبنجاعة. ففيما غالبيةُ أشكال التواصل البشرية تحتاج إلى استخدامِ اللّغة، فإن مؤسســاتٍ مثل البنوكِ والجيشِ قادرةٌ على تسيير شؤونها باستخدام لغةٍ مقلَّصةٍ ومحدودة؛ هذا غيرُ صحيحٍ في جامعة قابلة للحياة، حيثُ تشــكلُ المحاضــرات والدوراتِ والمباحثاتُ والتساؤلاتُ وقراءةُ الكتب وكتابتُها، أساساً لكلِّ الأمور الأخرى. تقومُ المؤسسةُ على أساس الافتراضِ المسبق للتعدّديةِ في الآراء المُعبَّرِ عنها، وعلى الرغم من وجودِ نظام هرميٍّ في الجامعة، فإنه مبدئياً على النقاش أن يكونَ مفتوحاً والجميعُ مدعوّين إليه. لا يُنتجُ هذا الجدلُ الأكاديمي (خصوصاً في العلوم الإنسانية) بالضرورة شيئاً أو يخلّفُ شيئاً ملموساً؛ هو ليس بانياً للأمّة، بالمعنى الصريح، وذلك لأن عالمَ الكلمات ليس ملموساً. [٥]

غيــرَ أن الجامعةَ العبريةَ كانــت، بمعنى آخر أكثر تحديداً، معْقِلَ اللغةِ في عهد «اليشوف» (الاستيطان) في ما قبلَ الدولة.

غيرَ أن الجامعةَ العبريةَ كانت، بمعنى آخر أكثر تحديداً، معْقِلَ اللغةِ في عهد «اليشوف» (الاستيطان) في ما قبلَ الدولة. في حين قدِم كثيرٌ من الأساتذةِ من الجامعات الألمانية، وكانوا منغمسين في اللغة الألمانية طولَ حياتِهم، فقد قامت الجامعةُ بدورٍ مركزيٍّ في إحياءِ اللغةِ العبرية. منذ اليوم الأول، جرى التعليمُ وأُعطِيت المحاضراتُ بالعبرية، حتى لو اضطر الأساتذةُ، الذين بالكاد كانوا يعرفون العبرية، إلى تسجيلِ ملاحظاتِهم بالألمانية أو اللاتينية. وكان الأساتذةُ، خصوصاً تور سيناي ويوسيف كلوسنر، مشاركينَ بعمقٍ في تقديم المشورةِ للجنةِ اللغةِ العبرية، التي كانت تنظيماً حاول، في الفترةِ ما قبلَ الدولة، توسيعَ ثروةِ اللغةِ العبرية وحلِّ مسائلَ نحويةٍ وما شابه. وأكثر من ذلك، اضطُرَّت الكلّياتُ في الجامعة إلى ابتكارِ مصطلحاتٍ اختصاصيةٍ وتعابيرَ في جميعِ المجالات، من الفلسفةِ إلى الأدب إلى الكيمياء والطبّ؛ كذلك قامتْ بترجمةِ كتبٍ من الإرث الغربي إلى اللغة العبرية، وعموماً كانت ترجماتٍ على أعلى المستويات اللُّغوية.[٦] وأخيراً، قامَ الأساتذةُ بالتدريبِ المهني للمعلمين، الذين ربما هم الأكثرُ مسؤوليةً عن غرسِ اللُّغةِ لدى النشئ.

في حين قدِم كثيرٌ من الأساتذةِ من الجامعات الألمانية، وكانوا منغمسين في اللغة الألمانية طولَ حياتِهم، فقد قامت الجامعةُ بدورٍ مركزيٍّ في إحياءِ اللغةِ العبرية. منذ اليوم الأول، جرى التعليمُ وأُعطِيت المحاضراتُ بالعبرية، حتى لو اضطر الأساتذةُ، الذين بالكاد كانوا يعرفون العبرية، إلى تسجيلِ ملاحظاتِهم بالألمانية أو اللاتينية. وكان الأساتذةُ، خصوصاً تور سيناي ويوسيف كلوسنر، مشاركينَ بعمقٍ في تقديم المشورةِ للجنةِ اللغةِ العبرية، التي كانت تنظيماً حاول، في الفترةِ ما قبلَ الدولة، توسيعَ ثروةِ اللغةِ العبرية وحلِّ مسائلَ نحويةٍ وما شابه. وأكثر من ذلك، اضطُرَّت الكلّياتُ في الجامعة إلى ابتكارِ مصطلحاتٍ اختصاصيةٍ وتعابيرَ في جميعِ المجالات، من الفلسفةِ إلى الأدب إلى الكيمياء والطبّ؛ كذلك قامتْ بترجمةِ كتبٍ من الإرث الغربي إلى اللغة العبرية، وعموماً كانت ترجماتٍ على أعلى المستويات اللُّغوية.[٦] وأخيراً، قامَ الأساتذةُ بالتدريبِ المهني للمعلمين، الذين ربما هم الأكثرُ مسؤوليةً عن غرسِ اللُّغةِ لدى النشئ.

على أي حالٍ، لم تقُم الجامعةُ العبرية فقط بإحياءِ اللُّغة العبريةِ والحفاظ على فكرة أن الرجل اليهودي والمرأة اليهودية هما مستخدما لغة، وإنما أيضا طورتْ فهماً خاصاً لروحِ اللغة العبرية. كان كثيرون من المعلمين الأوائل في الجامعةِ العبرية في الأيام الأولى (مثل مارتن بوبر وغرشوم شوليم وشموئيل هوغو بيرغمان وإرنست سيمون وليون روث ويهودا ماغنس)، مرتبطين بدرجاتٍ مختلفةٍ بمدرسة الحضارة الصهيونية التي أسسها آحاد هعام (آشر غينسبرغ، ١٨٥٦–١٩٢٧). وكان الأخير يؤمن بأن الصهيونية على وشكِ أن تبعثَ اليهوديةَ حضارةً وهويةً: هذه الحركةُ القوميةُ يجبُ أن تترجمَ التقليدَ الدينيَّ إلى منظومةٍ وطيدةٍ من العقائد والممارساتِ العلمانيةِ والعصرية – وبهذا صقل أُمّةٍ متجانسةٍ (التي لن تكون متمركزةً في منطقةٍ واحدةٍ أو دولة). هذه البعثُ الحضاريُّ، حسبَ إيمانِ آحاد هعام، يمكنُ أن يحدثَ فقط في فلسطين، حيث سيؤدي الارتباطُ من جديد بالأراضي القديمة إلى حقنِ الحياة الجديدة والروح الجديدة في الوجود الجمعي؛ بناءً عليه، نادى آحاد هعام بإقامة «مركزٍ روحي» (مركاز روحاني) في أرض إسرائيل (فلسطين) وليس فقط دولة قومية.

طور آحاد هعام ثلاثَ نقاطٍ مهمةٍ ذاتِ صلةٍ وثيقةٍ بالبحث الحالي: (١) أن كلَّ أُمّةٍ تملكُ روحاً قوميةً متميزةً (روح الشعب – روّاحْ هعام)؛ (٢) أن هذه الروح يتمُّ التعبيرُ عنها وصيانتُها وتنميتُها من خلال اللغةِ القومية؛ و(٣) في حالة اليهودية، فإن الروحَ القوميةَ تعني روحانيةً مرتفعةً وأخلاقياتٍ متميزةً على الصعيدين الفرديِّ والجمعيِّ على حدٍّ سواء.[٧] تعني هذه الأخلاقياتُ، بالنسبة لآحاد هعام، بين ما تعنيه، بحثاً غيرَ قابلٍ للمساومة عن العدالة، وقدرةً على النظرِ إلى القضايا الأخلاقيةِ بموضوعيةٍ وبدون أيِّ اعتبارٍ للمصالحِ الذاتية، ورفض هائلٍ للُّجوءِ إلى طرقِ العنف لحلِّ النزاعات البشرية. يرى آحاد هعام بناءً عليه، أن اللغةَ العبريةَ تجسِّدُ مراتبَ نموذجيةً للأخلاق، عالميةَ التطبيق ومقطوعةً عن المصالح الضيقة للمجتمع. حافظ مستخدمو اللغةِ العبرية على هذه الأخلاقيات من خلالِ إرثِهم من الكتب، والقصص التي تناقلوها وطرق الجدال وطرائق التفكير التي نمّوها والأمثال التي ابتكروها واحتفَوْا بها. اللغةُ العبرية، إن كان عليها أن تحافظَ على روحِها الأساس، لن تكونَ قادرةً على السماحِ بتشكيل مفرداتٍ ومكوناتٍ لغوية، أو تقاليدَ أدبيةٍ وتعليمية، من شأنها أن تمكّنَ المواطنين من استخدام القوة، وإنشاءِ دولة قومية في محيط نزاعيٍّ.[٨]

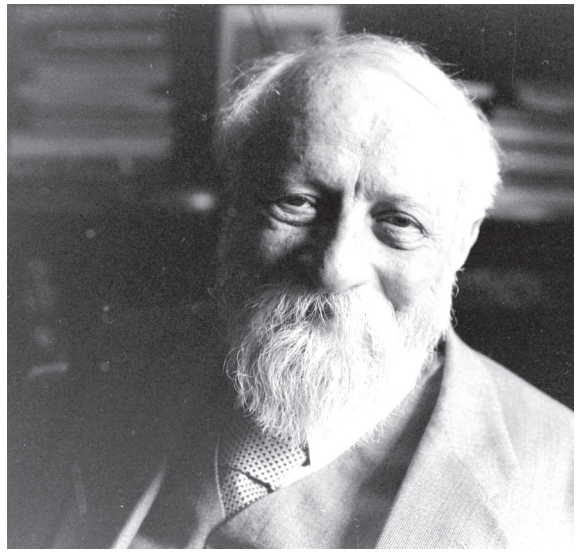

مارتن بوبر: اهتمام بالأولوية الأخلاقية.

كما سبق وأشرنا، اتبع أساتذةٌ بارزون في الجامعة العبرية خطى آحاد هعام، في تطوير رؤيا عن اللغة العبرية لا تتفق مع الأجندة السياسية للمستوطنين (اليشوف) – خصوصاً في سياق الاستخدام المتزايد للعنف في العلاقات مع الفلسطينيين (وكذلك البريطانيين). تطرق س.ه. بيرغمان، العميد الأول للجامعة، صراحةً إلى أن المؤسسةَ هي تجسيدٌ لفكرة آحاد هعام عن «المركز الروحي».[٩] وأضاف أنه «علينا أن نكونَ واعين بأن لا تبعدَ النشاطاتُ المطلوبةُ لبناء الأرض قلوبَنا عن مهمتِنا الروحيّة فيما يتعلق باليهودية. إن البناءَ الذي نقوم بخدمته يتجاوزُ البناءَ الاقتصادي والاجتماعي: هو تجسيدٌ لآلاف السنين من الأمل والطموحات الروحية لليهودية. هنالك خطٌّ تاريخي يربط بين فترة الحكماء وبين الأساتذة والمعلمين في جبل الكشافة.[١٠]

كان يُنظرُ إلى الطلاب والأساتذة، في تلك الفترة، باعتبارهم تجسيداً ليس فقط للخبرات العليا في بعض المجالات الأكاديمية، وإنما أيضا لفكرة أن البشَر هم مستخدمو لغةٍ وأن ذلك مرتبطٌ بالإدراك أن اليهود مدفوعون في الأساس برؤيا أخلاقيةٍ نموذجية. وقد عبَّرَ عن هذه النظرة بعضٌ من أبرز شخصيات الجامعة العبرية. من هنا، فإن ليون روث،على سبيل المثال، يكتبُ أن «العبريةَ ليست فقط اللغةَ الوحيدة قيدَ الاستخدام التي يمكن لكلِّ اليهود أن يتفقوا عليها. هي بحدّ ذاتها إلهامٌ، دعوةٌ من أجل ما هو أفضل. هي الجانبُ اللّغويُّ للصرخة من أجل أورشليم الجديدة».[١١] وفي الواقع، فإن روث، الذي ترك الجامعةَ في مطلع الخمسينيات، روّعتْهُ حربُ الاستقلال. تساءلَ خلال خطابٍ عن إحياء تُراث آحاد هعام، مكسورَ القلب: «اليهود والدم؟ هل هنالك تناقض أكبرُ من هذا؟»[١٢] المعنى الكامل للمهجر، بالنسبة لروث، كان الرفضَ اليهوديَّ للعنف الذي يسود العلاقات بين الأمم حولَ الأرض، ومحاولةَ تقديم منظومةٍ أخلاقية خاليةٍ من القسوة والوحشية وسفك الدماء؛ كانت العبرية، وفقا لإيمانه، حاسمةً في تشكيل هذه المنظومة الأخلاقية.

يعبر مارتن بوبر عن أفكارٍ مشابهة. هو يؤمن بأن اليهود، بصفتهم شعباً مختاراً، ملقاةٌ عليهم مهمةٌ أخلاقيةٌ في هذا العالم؛ وهم يستطيعون تنفيذَ هذه المهمة فقط كتجمع وفقط في أرض إسرائيل (حيث أيَّد بوبر دولة ثنائيةَ القومية). يتطلب الميثاقُ الأصلي مع الله، والذي يربط اليهودَ مع المُقدَّس، كذلك أن يحشدوا المجال الأخلاقي إلى المجالات السياسية والاجتماعية. اقتصرت القيمُ الأخلاقية اليهودية في المهجر على المراسيم الدينية والحياة الاجتماعية المحدودة، فيما أتاحت الصهيونيةُ فرصةً كبيرةً لترجمة المُثُل التوراتية اليهودية (كما عبَّرَ عنها، في الأساس، الأنبياء)، إلى جميع مجالات الحياة. وهكذا فإن المهمةَ الأخلاقيةَ للصهيونية تمّ حفظُها في اللغة.

«إن الصياغات المفهومية والطقسية الدينية النابعة من هذه التجربة اليهودية الرئيسة»، كتب بوبر، «فقط ساعدت في تبيان المعرفة الداخلية التي يحملُها فعلياً كلُّ يهودي في روحه الداخلية، ربّما رغماً عنه».[١٣] يرى بوبر أن اللغة تعبِّرُ عن الفرد بمصطلحات صفاته أو صفاتها كإنسانٍ أخلاقي. «عندما يتكلمُ إنسانٌ عظيمٌ» يكتب بوبر، «فهو لا يحتاجُ أن يحدثَنا عن شخصيته لكشفها لنا. اللغةُ نفسُها تهتمُّ بذلك.» يتشكلُ هذا الوجود الأخلاقي–اللغوي من خلال تقليدٍ لغويٍّ (وأيضا ديني) محدد، بما فيه من تمييز بين الصواب والخطأ، العادل وغير العادل، المُثُل التي يجدر اتّباعُها والمخاطرُ التي يلزمُ تجنُّبُها. بناءً على ذلك، «الفهمُ الإنساني يرى في التقليد الأدبي السلطةَ والقاعدةَ، لأنه يرينا كيفيةَ التمييز بين ما هو إنساني وما هو غير إنساني؛ إنه يحمل الشهادةَ على الإنسان ويكشفه».[١٤] تعني الإنسانيةُ العبرية، وفقاً لبوبر، السيطرةَ على التقليد الذي يفسّرُ ويعيدُ تفسيرَ القيم والرؤيا اليهودية. الجامعةُ هي المكانُ الذي يُدرَّسُ فيه التقليدُ، ويُحفَظُ ويُطوَّرُ، والناسُ في الأكاديمية يتحملون المسؤوليةَ ليس فقط لتشكيل أنفسهم وفقاً لمتطلبات التقليد، وإنما أيضاً لكونهم الأشخاصَ الذين يمثلون هذا التقليدَ أمام الجمهور.

كانت هذه الأفكار سارية في الجامعة العبرية في فترة ما قبل الدولة. تغيرت الجامعةُ بعد حربِ عام ١٩٤٨ (والحاجة

اتبع أساتذةٌ بارزون في الجامعة العبرية خطى آحاد هعام، في تطوير رؤيا عن اللغة العبرية لا تتفق مع الأجِندةِ السياسية للمستوطنين (اليشوف) – خصوصاً في سياقِ الاستخدام المتزايد للعنف في العلاقات مع الفلسطينيين (وكذلك البريطانيين). تطرق س.ه. بيرغمان، العميد الأول للجامعة، صراحةً إلى أن المؤسسةَ هي تجسيدٌ لفكرة آحاد هعام عن «المركز الروحي». وأضاف أنه «علينا أن نكونَ واعين بأن لا تبعدَ النشاطاتُ المطلوبةُ لبناءِ الأرض قلوبَنا عن مهمتِنا الروحيّةِ فيما يتعلق باليهودية. إن البناءَ الذي نقوم بخدمتِه يتجاوزُ البناءَ الاقتصادي والاجتماعي.

لتفريغ الجامعة من الحرم الأصلي في جبل المشارف)، في عدد من النواحي.[١٥] فقد نمتْ بشكل كبير، سواءً في ما يتعلق بالكلّيات أو بعدد الطلاب، وافتتحت برامجُ لاختصاصات جديدة (مثل العمل الاجتماعي ومدرسة إدارة الأعمال)؛ لم تعد فكرةُ البحث الجامعي البحت، المخصص أساساً للإنسانيات والمواضيع اليهودية، مسيطرة. لكن الأهمَّ من ذلك، أن علاقةَ الجامعة بالدولةِ تغيرت. بُنيَ حرمُ الجامعة الجديد في «غفعات رام» في القدس، رمزياً، على مقربةٍ من البرلمان الإسرائيلي، الكنيست، والمكاتب الجديدة للوزاراتِ الحكومية. جاءَ معظمُ تمويلِ الجامعة الآن من الدولة، وتحدَّدتْ مكانتُها القانونية حسب القانون.

على المستوى الأيديولوجي، كان التغييرُ كبيراً أيضاً. ادّعى القادةُ الجددُ للجامعة (مثل ناثان روتنستراييخ وبنيامين مازار) أن الإنشاءَ الموفق لدولة يهودية مستقلة شكلَ الإنجازَ الأكبر لليهود في التاريخ المتأخر، وعلى الجامعة أن تساهمَ بقسطِها في هذا الإنجاز. ظلت الجامعةُ بعد العام ١٩٤٨ مؤسسةً مرموقةً وأساتذتُها أعضاءَ مرموقين في المجتمع. وحظيت أراؤهم وانتقاداتُهم السياسية–الأخلاقية بتقديرٍ كبير (أنظر مثلا الحوارات المتبادلة بين بن غوريون وروتنستراييخ) وقوبلتْ سلطتُهم بالاحترام؛ في الحقيقة، يجوزُ أن صوتَ الأساتذة الجدد في الجامعة حظي بتأثيرٍ أكبر بعد الاستقلال، باعتبارِ أنهم لم يعودوا يُعتبَرون معادين لفكرة الدولة اليهودية وواقعها (كما كان بعضهم في الماضي). واصل أساتذةُ الإنسانيات والعلوم الاجتماعية وكلّيات القانون تمثيلَ حياةِ الروح اليهودية ومفهوم الأخلاق العليا المتفوقة، كما تمّ التعبيرعنها في الكلمة المكتوبة والمحكيّةِ – غير أن هذا المفهوم بات يُنظرُ إليه على أنه ضروريٌّ لتقديم العون في قيادة الدولة، وليس لنقدِ مجردِ وجودِها. إن الحديثَ الهاويةَ التي تحدثَ عنها آحاد هعام وأتباعُه من الجامعة، الفاصلة بين حياة الروح (اليهودية) وبين الحياةِ السياسية ومتطلباتِها لإدارة دولة مستقلة، بات مرفوضاً باضطراد. أما اليوم، فهذه الهاوية سقطتْ من الذاكرة.

[مترجم عن الانكليزية. ترجمة: فريد غانم]

المراجع:

١. أنظر بنيامين هارشاف، *اللغة في أوقات الثورة* (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٣).

٢. ميخا جوزيف بيرديشيفسكي، http://benyehuda.org/berdi/mey-emey_hamaase.html (accessed Oct. 13, 2013).

٣. أنظر أيضا دافيد أوحانا، *أصول الميثولوجيا الإسرائيلية: لا كنعانيون ولا صليبيون* (نيويورك: مطبعة جامعة كامبريدج، ٢٠١٢)، الجزء الثاني.

٤. أنظر مقالة ي.ه. برينر من ١٩١٩ «*أراما*» (أرض)، التي أعيدت طباعتها في «*أعمال ي.ه. برينر الكاملة*» الجزء الثالث (تل أبيب: الكيبوتس الموحّد، ١٩٦٧)، ٤٨١.

٥. ليون روث، «*خطاب العميد الافتتاحي*» (للسنة الأكاديمية ٢-١٩٤١)، الجامعة العبرية (القدس: دار نشر أهافا، ١٩٤١)، ٥.

٦. أنظر ميخائيل إوكيشوط، *صوت التعليم الليبرالي: ميخائيل أوكيشوط عن التعليم الليبرالي*، المحرر تيموثي فولر (نيو هافن: دار نشر جامعة ييل)، ٩٨.

٧. ليون روث، «بناء لغة»، *كومنتاري*، أيلول، ١٩٤٦، ٣٠٠-٢٩٨.

٨. آحاد هعام، المجموعة الكاملة لمقالات آحاد هعام (تل أبيب، دْفير، ١٩٤٧)، ١٥٥؛ أنظر أيضاً ستيفن زيبرشطاين، النبي المراوغ: آحاد هعام وأصول الصهيوني (بيركلي: دار نشر جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٣).

٩. أنظر شوورز، الفلسفة السياسية لدى الصهيونية. الجزء الرابع.

١٠. شموئيل هوغو بيرغمان، *الرؤيا المستقبلية للجامعة العبرية* (القدس: الجامعة العبرية، دار نشر همركاز، ٣٠-١٩٢٩)، ١٣١.

١١. المصدر السابق. من أجل نظرة عامة على ه. بيرغمان وأساتذة قياديين آخرين في الجامعة العبرية في العقود الأولى، أنظر *أساف سلزر* (محرر) *تاريخ الجامعة العبرية في القدس الجزء ٤. من هو السابق لحالة الدولة: مؤسّسون، مصمّمون وطليعيون* (القدس، دار نشر ماغنس، ٢٠١٣).

١٢. ليون روث، *الجامعة العبرية ومكانتها في العالم المعاصر* (نيويورك: أصدقاء أميركيون للجامعة العبرية، ١٩٤٥)، ٧.

١٣. ليون روث، «عودةٌ إلى آحاد هعام وانطلاقٌ منه». خطابٌ ألقي في المؤتمر الثالث عشر للمبشرين الأنجلو-يهود، ١٩٦٠. في «روث»، *هل منالك فلسفة يهودية؟ أعادة التفكير في القواعد الأساس* (أكسفورد، المملكة البريطانية: دار النشر ليتمان، ١٩٩٩) ١٥٩.

١٤. بول مِندِس فلوهر، «القومية كإدراك روحي: فرضيات بوبر في الإنسانية العبرية»، *مجلة الدين*، الجزء ٦٩، رقم ٢، نيسان ١٩٨٩، ١٦٤.

١٥. مارتن بوبر، «*الأنسانية العبرية*» *في إسرائيل والعالم: مقالات في زمن الأزمة* (سيراكوز، نيويورك: دار نشر جامعة سيراكوز، ١٩٩٧)، ٢٤٣. أنظر أيضاً دان أفنون، بوبر: الحوار المخفيّ (أكسفورد، إنجلترا: رومان وليتلفيلد، ١٩٩٨).

١٦. جاءت الفقرة التالية بمساعدة كبيرة من نص أوري كوهن، *الجبل والتل: الجامعة العبرية في القدس خلال فترة ما قبل الاستقلال والسنوات الأولى لدولة إسرائيل* (تل أبيب: دار نشر عام عوفيد، ٢٠٠٦)، القسم ٦.

١٧. الحوارات بين روزنستراياخ وبن غوريون، والتي جاءت بعد العمليات العسكرية الإسرائيلية في صحراء سيناء (١٩٥٦) أعيد نشرها في مجلة *حازوت*، ٣ (٧-١٩٥٦) (عبرية).